

تحقيق العبادة لله تعالى وارتباطه بالتوحيد

كذلك أيضا إذا عرفنا أنه خلقتنا لعبادته، فإن العبادة لا تُسمَّى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تُسمَّى صلاة إلا مع الطهارة، فإذا دخل الشُّرك في العبادة أفسدها، كما أن الحدّث إذا دخل في الطهارة أفسدها، إذا أحدث انتقض وضوء الإنسان؛ فسدت صلواته؛ فعليه أن يجدد الوضوء. فكذلك إذا دعا الله تعالى، ودعا غيره من المخلوقات؛ فقد أفسد عبادته؛ حيث جعل مع الله معبوداتٍ أخرى، وذلك هو الشرك الذي يُخبط الأعمال، قال الله تعالى: { وَكُفِرُوا بِاللهِ لِحَيْبِ عَنَّمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } . ثم يُقال أيضا: ما أوَّلُ شيءٍ فرضه الله عليك؟ فتقول: إن الله تعالى أرسل رسوله بتوحيده وتزك عبادة غيره، قال الله تعالى: { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ أَعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } . كل الرسل جاءوا أقوامهم بقولهم: { أَعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } ؛ أي اتركوا عبادة الطاغوت، والطاغوت: كل ما عُبد من دون الله حثًّا أو ميتًا. اجتنوبه؛ يعني ابتعدوا عن عبادته، وابتعدوا عن تعظيمه بأيّ نوع من أنواع التعظيم، فهذه هي الحكمة التي خلَق الإنسان لها: { أَعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّبَ اللهُ الصَّلَاةَ } . ثم تُعرف أيضا أن العبادة التي أمرنا بها نُعمُّ كلَّ فُرْيَةٍ يُتَقَرَّبُ بها إلى الله، فمَنْ تقرب إلى غير الله بشيء من تلك القربات فقد أشرك. فمَنْ دعا غير الله فقد أشرك. إذا دعا الله ودعا غيره جعل دعاءه مشتركا، فأصبح مشتركا، والدعاء يُعمُّ النداء؛ الذي هو دعاء المسألة، ويعمُّ التعظيم؛ الذي هو دعاء العبادة. فإذا مثلا رأيت إنسانا يَتَمَسَّحُ بغير ولي من الأولياء، ويأخذ ثُرَيْتَهُ بتركها؛ فقلت: أرحمني، إنما تبركت بترتبه، أو صليته عنده، أو تمسحت بقبيره، أو بجدار القبر، أو بصلواته؛ فنقول: هذا دعاء؛ لأنك دَعَوْتَهُ بلسان الحال، ما دعوتَه بلسانك، ما قلت: يا سيدي ارحمني ولكن تعظيمك له يُعْتَبَرُ دعاءً. فنقول: إن على المسلم أن يكون دعاؤه كَلَّةً لله؛ دعاء العبادة، ودعاء المسألة. دعاء العبادة هو: التعظيم، فهذا الذي جاء إلى قبر ولي، وخضع عنده، وتواضع وتذلل له، أليس يرجوه؟ لا شك أنه يرجوه، وأنه بلسان الحال يقول: يا وليَّ الله إني جئتك لتشفع لي، أو تبارك في عمري، أو تبارك في مالي، أو تصير شافعا لي، أو تصير نافعا لي في دنياي وفي آخراي. أليس ذلك عبادة؟ إن هذا دعاء، وإنه عبادة؛ لأنه تذلل له؛ إذًا: كَلَّ من دعا معه أحدا أشرك بالله ولو مُخَمِّدا يعني: ولو دعا محمدا النبي صلى الله عليه وسلم، فقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم لَمَّا قال له رجل: ما شاء الله وشئت، فقال: { أعلنتني لله نداءً؟ قُل: يا يَسَاءَ اللهُ } مع أنه في حياته له مشيئة؛ لقوله تعالى: { لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ } ولكن مشيئته مرتبطة بمشيئة الله؛ لقوله: { وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ } . فهذا لا شك أنه قد أشرك؛ حيث إنه تَبَرَّك بهذا الولي في نظره، وبهذا المشهد، وتَحَرَّى الصلاة عنده، وتحرى التمسح به، فهذا دعاء لغير الله، تُسَمِّيه دعاءً ولو كان لم يَصْرُحْ. فإذا صرَّح وقال: يا ولي الله ارحمني يا ولي الله اشفع لي يا ولي الله ارزقني انصرني على أعدائي؛ فنقول: هذا أيضا شرك، دعاء ظاهر. كذلك أيضا: الخوف من أنواع العبادة، قال الله تعالى: { إِنَّمَا دَلَّكُمْ الشَّيْطَانُ بِخَوْفِ أَوْلِيَاءِهِ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ وَالْمَرَادُ هَاهُنَا خَوْفُ الشَّرِّ، الخوف الذي في القلب؛ وهو أن يخاف من ميت، أو يخاف من غائب، يخشى أنه إذا لم يُطْعَمْ أو لم يُعْطَ أن يتسلط عليه. هذا أيضا من الشرك؛ ولذلك قال: { فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ } . وكذلك الرِّجَاءُ، والرجاء والخوف عبادتان لا يَصِحُّ صَرْفُهُمَا إلى غير الله، إنما المؤمنون يعبدون الله ويخافونه، ولذلك قال تعالى: { أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ } أخبر بأنهم يرجونه ويخافونه، فمن رجا غير الله كما يرجو الله؛ فقد أشرك. كذلك أيضا المحبة القلبية، التي هي محبة التعظيم، هي عبادة لا تصلح إلا لله؛ ولأجل ذلك أنكروا الله على الذين يسبون بين الخالق والمخلوق في المحبة في قوله تعالى: { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللهِ } ؛ فدل على أنهم يحبون الله ويحبون غيره؛ يعني يحبونهم ويحبون الله على حدٍّ سواء؛ فجعل له أندادا، ودخل ذلك في قوله: { فَلَا تَجْعَلُوا لَهُ أَندَادًا } ؛ فهذا يعتبر شُرْكَا. الشرك في الدعاء، والشرك في الخوف، والشرك في الرجاء، والشرك في المحبة، والشرك في التوكل؛ أن يتوكل الإنسان على مخلوق، بمعنى أنه يَكِلُ إليه أمره، هذا المخلوق الذي لا يملك ضرا ولا نفعا، هذا المخلوق الضعيف، الذي ليس بيده ضر ولا نفع لنفسه فضلا عن غيره، فكيف يتوكل عليه إنسان مثله؟! ولذلك جعل الله التوكل عبادة في قوله تعالى: { وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ } { وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } { وَعَلَى اللهِ } والمُعْرِبُ لا إله إلا هو فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا } أي تكل إليه جميع حالاتك. وهكذا أيضا من العبادات: الرغبة والرغبة والخشوع، قال الله تعالى: { وَإِلَى قَارِبُونَ } الرغبة شدة الخوف، وقال: { وَإِلَى رَبِّكَ قَارِعَبٌ } الرغبة هي قوة الرجاء، وتعلق القلب بالله تعالى في رجائه. وكذلك من العبادات: الخوف والخشية. الخشية أشد الخوف؛ ولذلك قال تعالى: { فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ } أي لا تخشوا الأعداء، ولا تخشوا المخلوقات، وإنما الخشية التي هي شدة الخوف حَقُّ لله تعالى. كذلك أيضا من العبادات: الاستعانة، قال الله تعالى: { إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ } قيل: إن هذه الآية دالة على تَوَعِّي التوحيد: توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، فتوحيد الألوهية: { إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ } وتوحيد الربوبية: { وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ } هكذا أخبر { وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ } . والنبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث ابن عباس { إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله } ويقول الله تعالى: { وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } الاستعانة التي هي طلب العون من الله وحده، وإذا استعان بالإنسان فإنه يستعين به فيما يقدر عليه من القوة التي أعطاه الله، مع أن قوته إنما هي من الله وبالله. كذلك أيضا الاستعانة بعبادة؛ ولذلك يأمر الله بها في قوله: { فَلِأَعُوذُ بِرَبِّ الْقَلْقِ } { فَلِأَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ } { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } { وَفَلِ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ يَحْضُرُوا } { وَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ تَرْتِيلٌ بَلْ تُسَمِعُ بِهِنَّ كَمَا يَسْمَعُ بِنُوحٍ إِذْ دَعَا إِلَى رِبِّهِ فَاسْتَجَبَ لَهُ } . التي هي طلب الحماية والحفظ، يشعر الإنسان مثلا بالخوف من المخلوقات أو بالضرر من أية مخلوق، فلا يجد له مَعَاذًا ولا ملجأ إلا الله، فيقول: أعوذ بك يا رب، أعتصم بك، وأستعين بك، وأتَحَفَّظُ بك، وألوذ بك من أعدائي أن يضروني، فإن نواصيهم بيدك: { مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا } يُسَلِّطُهَا عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَيَرْذُهَا عَمَّنْ يَشَاءُ، فالمتعبد يشعر من نفسه بأنه ضعيف عن مقاومة أعدائه، فيلجأ إلى ربه وينظر بين يديه ويلوذ به، ويطلبه أن يحميه ويعصمه ويحفظه ويخصَّته من كيد كل مَنْ يريد أن يكيد؛ فالاستعانة عبادة، وأيُّ عبادة. وكذلك الاستعانة، وهي الدعاء من المكروب؛ ولذلك قال تعالى: { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ } أي تطلبونه في حالة شدتكم؛ ولهذا يُسَمَّى دعاء لله تعالى بطلب المطر استعانة؛ وذلك لأن الناس إذا أجذبوا، وقعوا في شدة، ووقعوا في فاقة وفي ضرر؛ فهم يدعون الله تعالى في تلك الشدة؛ فَيُسَمَّى دعاءهم استعانة أي: نستغيث بك نطلبك يا رب أن تعيننا، الغوث الذي هو إزالة الشدة، وإزالة المخاوف، وإزالة الشدائد عندما تحيط بالإنسان الأعداء من كل جانب. كذلك بقية العبادات: الركوع عبادة، والسجود عبادة، والخضوع عبادة، والذبح عبادة، كما في هذه الأيام الذين يذبحون هديهم، أو يذبحون فدية، أو يذبحون جزءا، أو يذبحون دم جبران، أو ما أشبه ذلك، أو يذبحون أضاحي، ماذا يقصدون بذبحها؟ لا شك أنهم يقصدون بها التقرب إلى الله؛ ولأجل ذلك تُسَمَّى قربانين، هذه الأضاحي، وهذه الهدايا تسمى قربانين. كيف سميت؟ لأنهم يتقربون بها إلى الله، فيقولون: يا رب هذه مما سخرت لنا من بهيمة الأنعام، أنت الذي سخرتها، وأنت الذي دَلَلْتَنَا لَهَا، فنحن تَقَرَّبُ بها تعظيما لك، لا تعظيما لمخلوق سواك؛ ولذلك يقول ابن القيم رحمه الله: ولأجل ذا ضحى بجعد خالد القسري يوم ذبائح القربان شَكَرَ الصَّخِيَّةَ كُلَّ صَاحِبِ سُنَّةٍ لِلَّهِ دَرَكٌ مِنْ أَحَبِّ قُرْبَانِ الْقَرْبَانِ هُوَ الْأَضَاحِي، وهذه الهدايا التي تذبح هنا. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: { لعن الله من ذبح لغير الله } الذين يأتون مثلا إلى قبر الولي فلان، يعقرون عنده ناقة، أو يذبحون عنده بقرة أو شاة، أو حتى أية شيء يعظمونه به، يعتبرون بذلك قد عظموا هذا المخلوق الذي لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضررًا. ورد في الحديث المشهور: أَنَّ رَجُلًا مَرَّ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنْمٌ؛ لَهُمْ صَنْمٌ قَبْرٌ وَهَيْكَلٌ مَا يَتَجَاوَزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُؤَرَّبَ لَهُ، فأحد الذين مروا عليه قرب ذبابة؛ أخذ ذبابةً وقتله تعظيمًا لهذا الصنم، فكان ذلك شُرْكَا استحق به أن دخل النار، والآخر امتنع وقال: ما كنت لأقَرَّبَ لأحد شيئًا دون الله-لِقُوَّةِ إيمانه- فكان ذلك سببًا في أنه لما قتلوه قُتِلَ شهيدًا، فدخل الجنة. وكذلك البُذُورُ: يقع من المشركين أنهم يعظمون المشاهد والقبور، فيقول أحدهم: إذا شَفِيَ مريضٌ فَعَلَيَّْ أَنْ أُذِيعَ لِقَبْرِ شاة، أو أُذِيعَ له دجاجة، أو نحو ذلك. أو إذا شَفِيَ مريضٌ أو رجع غائبي فَعَلَيَّْ للسيد الفلاني أن أُشْرَحَ قبره ليلة أو ليالي. أو يقول مثلا: إذا رحلت في تجارتي فَعَلَيَّْ للسيد الفلاني، أو القبر الفلاني أن أهرق عليه سمنًا، أو نحو ذلك. أليس هذا تعظيمًا لهذا السيد؟ أي لهذا القبر. لا شك أن هذا يُعْتَبَرُ عبادة، فيكون من الشرك والعباد بالله. نعرف أن هذه عبادات الله، التي لا يجوز لأحد أن يصرف منها شيئًا لغير الله. من صرف منها شيئًا لغير الله فقد أشرك بالله، وقد كفر نعمة الله تعالى.